آفاق

« ملحق العدد 37 »

ملحق العدد 37 يوم الجمعة 1 شعبان 1443هـ الموافق 4 آذار/ مارس 2022م

1

جريدة إلكترونية شهرية ثقافية منوعة تصدر عن مؤسسة البيان للعلوم والمعرفة

خذلان أُبوّة، بقلم الكاتبة الجزائرية: ليندا شايب

لحظات صمتٍ مؤقتة، فكر مشتت ومشاعر مختلطة غير مفهومة، تنهيدات عميقة ودموع كثيرة، صعقة في الروح شقّت كل مشاعر الأمومة لديّ، وكومة من التساؤلات تغزو فكري ..لماذا أنا ؟ ولماذا طفلتي بالذات؟

سبع سنوات تمر اليوم على إنجابي لطفلتي، سبع سنوات لعينة بالنسبة لوالدها تجعل صدره يضيق وصبره ينفذ كلما لمحها.. لا أستطيع وصف نظراته كلما رآها أمامه، ولا كمية الشتائم التي يُلقيها عليها كلما حاولت تقبيلة أو الاقتراب منه.

سبع سنوات تمر على إنجابي لها، حيث كانت لحظة ولادتها من أصعب اللحظات في حياتي، أفقت من البنج وأنا غير مدركة لما يدور من حولي، جسمي متعب، ورأسي مُثقل ومشوش، لا توجد به سوى الفوضى، هدوء يسود المكان، وعلامات أسف وحزن تلف ملامح الطبيب ومساعديه.. لا أعلم ما الذي دفعني لأسترق السمع وهو يتحدث إلى المرضة، ربما ملامحه التي يبدو عليها القلق أو ذلك التوتر الذي كان مسيطراً على الجميع، أو ربما هي لهفتي لمعرفة حال مولودتي؛ إلا أن كل ما استطعت سماعه جملة واحدة:

"المولودة متلازمة داون "..!

نزل عليّ ما سمعته كالصاعقة، أعطى فؤادي سكتة.. لحظات صمت، ولا شيء يتردد على مسمعي سوى كلمة: داون.. داون.. داون..!

لم أستطع تقبل الأمر، وكذلك زوجي الذي قرر التخلي عنها وعني فور سماعه للخبر لولا تدخل من والده..

بعد ستة أيام من الولادة عدت إلى بيتي، لم أجد أحداً في استقبالي سوى والدتي، والذي عصف بي منظرها وعبوس وجهها الذي بعثر ما بقي لم يتبعثر بداخلي، كانت أمنيتي الوحيدة في تلك اللحظة أن أتمكن من حبس دموعي أمامها، وأن لا تفتح أي باب للحوار معي.. اقتربت مني سائلة وقالت: كيف سميتها ؟

خولة.. قلتها وأنا أبتسم، بينما استرسلت هي في حديثها أوَ تعرفين معناه؟ أجبتها بكل ثقة: الفتاة الحسناء، والظبية الصغيرة حديثة الولادة التي لا تمتلك القوة والقدرة على المشي، قالت: أجل، ولكن ابنتك لن تكون قادرة على المشي لوحدها أو الاعتماد على نفسها حتى عندما تكبر..

خذلان أُبُوّة، بقلم الكاتبة الجزائرية: ليندا شايب

ابتسمت لها قائلة : سأكون ظلها الذي لن يفارقها أبدًا.

★★★

مرت الأيام سريعاً وخولة تكبر وسط عائلة شبه مفككة، حيث لم يستطع والدها تقبلها أو أن يهتم لأمرها أو حتى الاقتراب منها وحملها بين ذراعيه، قضيت ساعات وأيام كاملة في المحاولة وكنت لأقضي عمري بكامله وأنا أشرح له : أنها إرادة ومشيئة الله ولا دخل لابنتي في أنصاف الأشياء التي خلقت معها نصف عقل، نصف وعي، ونصف إدراك .

شهدت بروز أسنانها الأولى بمفردي، وأولى خطواتها في المشي أيضًا، كلماتها المبعثرة والغير مفهومة إلى أن قالت : ماما أول مرة.

كبرت صغيرتي ثلاث سنوات، وصرت أصحبها معي إلى المركز الذي أعمل به لتعليمها النطق السليم، والحروف والكتابة وآداب الجلوس والكلام وحتى الطعام، حاولت جاهدة أن أعوض نقصها العقلي، وقد استطعت فعل ذلك بحكم خبرتي التي اكتسبتها لسنوات من خلال تعاملي مع هذه الفئة في المركز الذي أعمل فيه .

وكم كانت فرحتي عظيمة عندما أراها تتجاوب معي ومع الآنسات هناك، وازددت فخرًا بها عندما رأيت حب زملائي لها ومدحهم لأخلاقها وتربيتها وهدوئها وفطنتها، والثناء على طريقة كلامها وجلوسها.

حين بلغت صغيرتي السادسة من العمر أصبحت هي المسؤولة عن نفسها وإخوتها





ووالدها المريض أيضاً، تركض لمساعدته دائماً، وتذهب معه إلى الأسواق تحمل عنه أكياس الخضرة، وكان يتفاجأ من حنانها وحبها المفرط له، لم يكن ذنبها ولم تختر أن تُخلق داون، لكني أردتها أن تحيا لأجل نفسها أولاً ولأجلي أيضاً كأي طفلة لا يفرقها عن الآخرين شيء سوى ملامحها الناعمة والبريئة جداً.

★★★

اليوم تمر سبع سنوات على مولد صغيرتي، أجل فقد أنجبتها في نفس اليوم الذي ولد فيه والدها وفي نفس الساعة أيضاً (الرابعة عصرًا).

كانت ساعات هذا اليوم تمر بطيئة وغير مريحة.. مساء بارد لكنه مملوء بالدفء، ومن بين جدران البيت تسللت خولة إلى الخارج، وراحت تجوب شوارع البلدة وقد اتخذت منها ساحة للركض والبحث عن محل للهدايا، تارة تركض بحب وفرح تسلم على صاحب الفرن وبائع الكعك، تبتسم لجارنا الكهل وهي تلقي عليه التحية وهو جالس يشاهد حركة الشارع من نافذة مكتبه، وتارة أخرى تقفز فوق البِرك لتكمل طريقها نحو البهجة ومُرادها.

كان المساء يمر عادياً لولا الأبواب التي وجدتها مقفلة لتختار المكوث في الجهة المقابلة للمحل؛ لتراه عندما يفتح أبوابه من جديد.. جلست ولم تكن تعي أو تدرك أين!

فجأة ضج الشارع بالصراخ، أصوات تتعالى بدماء طفلة سائحة على الأرض.. الجميع يركض صاحب الفرن، بائع الكعك، صوت جارنا الكهل بث الرعب في نفسي لأحث زوجي

خذلان أبُوّة، بقلم الكاتبة الجزائرية: ليندا شايب

على الخروج وتبين الأمر.

مرت الدقائق ولم تعد، نهضت بخوف وهلع باتجاه الشارع، أصوات تكبير انبعثت من المقهى المجاور لبيتنا، وإنذار سيارة الإسعاف كان قد امتزج بآهات ونياح بعض النسوة، سرت قشعريرة في جسدي؛ فكل ما أراه أمامي مخيف وحزين.. تجاوزت الشارع المكتظ بصعوبة كبيرة لأرى زوجي وهو يحمل بين يديه جسدًا صغيراً صعُب عليّ معرفة صاحبه، وبجانبه شاب يحمل بقايا لعبة مكسورة. قفزت من مكاني بعجز ومنظر تلك اللعبة في يد ذلك الشاب قد أنهى كل نبض للحياة بداخلي، ومن بين الزحام وصراخ الناس كان زوجي واقفاً وقد انقطع نفسه من البكاء ليصبح كجثة وقد غاب عن الوعي.

★★★

عند الرابعة عصراً من اليوم الواحد والعشرين من أيّار، وفي غرفة خاصة بمستشفى للأمراض العقلية، كان كل شيء هادئاً إلا عقل زوجي، دخلت بخطى متثاقلة وأنا أعض على شفتي كمحاولة مني للتخلص من توتري ليقابلني وجهه الذي باتت ملامحه متعبة جداً وغريبة حدّ النسيان، أجلس على الكرسي المقابل لسريره وأسأله: كيف حالك يا شِبه الوالد الذي لا فائدة له في هذه الحياة؟

كيف حال قلبك الذي يحمل قبح هذا العالم وسواده؟ كيف تقضي أيامك بين جدران هذه الغرفة الباردة كبرودة مشاعرك، وكيف حالك اليوم؟ رفع رأسه موجهاً نظراته نحوي ليجيبني بهدوء وبصوت تملأه الخنقة مُتجاهلاً ما سمعه مني: خولة ستعود أليس كذلك؟ إلى أين ذهبت! لقد أزعجني غيابها الطويل هذا.. أريدها أن تعود لأخبرها بأني أحبها جداً، وبأن حنانها غارق في عمق قلبي كجرم سماوي، أريد أن أخبرها بأن سهام الرحمة والحب التي كانت تطلقها نحوي قد منحتني معنى للحياة..

لقد كانت فرحة البيت وأصبحت غصته التي لن تزول، هذه الحسرة تكاد تقتلني، صدى كلماتها وضحكاتها يلاحقني دائماً، قتلني الأرق والندم وهي لم تعد بعد..

أقضي الليالي حسرة، فقد كانت هبة من الله لي لم أستطع الحفاظ عليها، فقد أدميت قلبها الصغير، لم تكن تستحق كل تلك القسوة مني.

منظرها وهي غارقة في دمائها لا يفتك يغادر مخيلتي.. يدير رأسه نحو نافذة الغرفة يمد يده.. يغمض عينيه، ويغرق في نوبة بكاء حادة.

يأتي الطبيب مع مساعديه، يحقنوه بإبرة منومة ليتيه في حلم طويل؛ وليعايش عيون ابنته التي طالما ما أشاح بناظريه عنها، وليقرب المسافة البعيدة التي خلقها بينهما علّه يتعافى بقرب خيالها منه، ويعيش عمراً كاملاً بجانبه طالباً المغفرة، فخولة لم تمت بحادث سير بل ماتت بجرعة قسوة وإهمال وخذلان شديد من أبيها.

